# قصة المذكرات (١)

الدكتور عدنان الخطيب

— ١ —

## تاريخ كلمة بين الاصالة والتوليد

يقول أرباب المعجمات : الذال والكاف والراء أصلان عنهما يتفرع كلّ الباب ، أحدهما : ذكرتُ الشيءَ : خلافُ نسيتُه ، وذكرتُه ذِكراً وذُكراً وذِكرى وتذكاراً : حفظتُه واستحضرتُه وجرى على لساني ، وما يجري على اللسان بين الناس ، قد يدوّنه البعض في قرطاس .

وذكرَ الشيءَ : عابَه ، والناسَ : ذكر عيوبَهم ، **والتذكُّر : ذكر الشيء بعد نسيانه** ، والاستذكار : الدراسة للحفظ . والذاكرة عند المولدين : قوة من قوى العقل تبعث على استذكار المعلوم في الذهن ؛

---

(*) أقيمت في قاعة نقابة المحامين بدمشق مساء يوم ١٧ تشرين الثاني ١٩٧٦

(١) كتب الدكتور عدنان الخطيب بحثاً مطولاً عن « مذكرات محمد كرد علي » تحت عنوان « قصة المذكرات كاملة » وقد حال ضيق الوقت في ندوات الاحتفال دون قراءة القصة كاملة ، فاجتزأ منها بالمقدمة التي تنشر هنا ، وستنشر كاملة في كتاب مستقل .



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعند الحكماء : قوة تحفظ ما تدركه القوة الوهمية من المعاني وتذكرها؛ وعند الفلاسفة : القوة التي تدرك بقاء ماضي الكائن الحي في حاضره . والمذكّرة : **ما تحفظه أو تدونه ليذكّرك أو تبعث به ليذكر غيرك** ، أي لتجعل الذاكرة تعمل عملها .

وفي مصطلح المترجمين **المذكّرة** : ما يعبر عنه بالافرنجيـــة بكلمة Note حيناً ، وبكلمة Mèmoire أحياناً . وعند رجـال القانون : بيان مجمل أو مفصل يقدم إلى القاضي **تشرح فيه بعض المسائل القانونية أو تفند فيه مزاعم أو بيانات الخصم** ، وقد تطلق على أمرٍ يصـــدره القاضي لينفذ .

خلق الإنسان نسيّاً ، يحفظ شيئاً وينسى الكثير ، والناس مذ عرفوا الكتابة ، بدأ أفراد منهم يحفرون الحروف والرموز ليذكروها أو أو يذكرها من يمرّ بها ، ثم أخذ آخرون يثبتون حادثاً أو يجلون غامضاً كي لا يُنسى ، وقام علماء يؤرخون للعظائم ، وارتد بعضهم يسجل ما سمعه عن ما جرى منها **لينتفع الناس بذكراه** .

وصف كثيرون رحلات قاموا بها ، ودوّن كثيرون معلومات جمعوها يوماً فيوماً أو كلما حصلوا عليها حفظاً لها من الضياع ، **جرى هذا في الشرق وفي الغرب** ، وكان المؤلفون هنا وهناك يُعَنْوِنُون كتاباتهم ، بأسماء تدل على الموضوع الذي كتبوا فيه أو تبين عن الدافع إليه أو ترمز إلى الغاية منه ، وكان من أجلّ كتب التراث ما عنّن بـ « **السّيرة** » أو دون في « **السّير** » ، كما كان ماوصل إلينا من كتب ما أطلق عليه اسم « **التذكرة** ».

وفي الغرب ترك كثير من الكتـاب والأدباء مدونات تحت أسماء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رسم الطابع التذكاري الذي صدر بمناسبة الاحتفال بمرور مئة عام
على مولد الأستاذ الرئيس محمد كرد علي

( تصميم الفنان عزير إسماعيل )

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مختلفة مثل « خواطر » و « اعترافات » و « أسرار » و « قصة حياتي » و « مذكرات قضائية » كما شاع لدى رجال السياسة تدوين ذكرياتهم ولا سيما بعد الحروب الطاحنة أو المعارك الفاصلة ، يفندون فيها ما قاموا به من أعمال أو يشرحون الملابسات التي اكتنفت بعض مواقفهم فدفعتهم إلى سلوك معين أو إجراء مستغرب ، مطلقين على ما دونوه اسم « Mèmoires » ، وما كادت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها حتى عكف كثير من الرؤساء والوزراء والقواد الذين حكموا بلادهم خلال الحرب على تدوين الحوادث التي شاركوا فيها وعرض الأسباب التي يرونها تسوّغ لهم ما فعلوه ، ونقلت إلى العربية عشرات من الكتب تحمل كلها تقريباً اسم « المذكّرات » .

فكيف طغت لفظة Mèmoires لدى الافرنج على غيرها من الكلمات التي كانت شائعة قبل زمن ليس ببعيد ، ومن أين جاء المترجمون بلفظة « مذكرات » ، ولماذا اختاروها دون غيرها من ألفاظ عربية ؟ . ولماذا فضلوها على لفظة « ذكريات » التي نرى لها حتى اليوم أنصاراً يحبون لها أن تحتل عناوين كتبهم ؟.

لقد مرّ على البشر زمن كانوا فيه إذا ما تنازع اثنان منهم على حق قنعا ، وأحدهما مكره طبعاً ، بتحكيم القوة بينهما ، فيتبارزان أمام الناس بالشاقـــع من الـلاح ، ويغدو الحق لمن غلب ، ثم أصبح للمهارة في المبارزة أثر في إنهاء الخصومة بين المتنازعين ، وعندما تولى القاضي في الدولة الحـكم في المنازعات بين الناس ، غدا الخصمان يتبارزان أمامه بمساعدة من يتقن عرض النزاع ويحسن البيان عن أوجـه الحق لدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

موكله ، يقارع خصمه بالحجج ويجبهه بالنصوص معتمداً على نصاعة الأسلوب وفصاحة الكلام .

وهكذا وسمت المحاكمات في العصور الحديثة بطابع المبارزة ، غير أن السلاح فيها أصبح : علماً من القانون ، ومهارة في العرض ، وروعة في البيان ، وكان على المترافع أمام القاضي أن ينهي كل هذا برقعة Mèmoire يدون فيها خلاصة ما قال ، ويوجز فيها أهم ما أطال في شرحه ، لتكون سنداً يستعين به الخصم للردّ ، وتذكرة للقاضي تلملم له أطراف النزاع قبل أن يقطع بالحق .

وشاعت كلمة Mèmoire في البلاد العربية مذ تسربت إليها تشريعات الفرنجة وأصول التقاضي لديهم ، مترجمة بلفظة « مذكّرة » .

وأحب المشتغلون بالسياسة ـ ومضى وقت كان أكثر هؤلاء في الشرق كما في الغرب ، من رجال القانون ـ إثباتَ ملخص ما جرى في مفاوضات اشتركوا فيها أو تدوين ما وقع في اجتماعات حضروها ، في « مذكرات » تحفظ المعلومات التي عرفوها وحقائق ما شاركوا فيه ليتمكنوا من الرجوع إليها إذا ما دعت إلى ذلك مصلحة ما ، ثم أخذ نفر من رجال السياسة يتابع تدوين ذكرياته حتى كانت كتب كاملة تحمل اسم « مذكرات » فيها قصة كاملة لموضوع عام أو تاريخ حقبة من الزمن يحكي سيرة كاتبه من خلال الحوادث التي كان بطلاً لها أو مشاركاً فيها .

ولم يقتصر تدوين « المذكرات » على رجال السياسة ، بل كان للقضاة والأطباء ، فضلا عن الأدباء والصحافيين ، نصيب كبير في تدوين الذكريات حتى غدا ما يسمى بـ « أدب المذكرات » أدباً عالمياً مرموقاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مختلف اللغات ، يتهافت الناس على قراءته للتمتع بما يتضمنه من أفكار أو بيان رائع ، أو للاطلاع على تراجم ذاتية قيمة ، أو لمعرفة حقائق سياسية مستورة ، أو وثائق تاريخية مجهولة ، وبعض المذكرات كانت تتضمن كل هذا أو بعضه .

إن المذكرات ، بصورة عامة ، ذكريات شخصية تحمل في الغالب بأسلوبها أو روحها الطابع المميز لكاتبها ، ويمكن تصنيف المذكرات في ثلاث فئات .

الأولى : يجمعها وصف « **المذكرات السياسية** » وهي مفيدة لتأريخ فترة من الزمن أو لتفسير حوادث وقعت خلالها ، وقد لا يكون الهدف من تدوينها . **إلا الدفاع عن سلوك قام به صاحبها أو عن رأي ارتآه خلال تلك الحوادث** ، أو رد تهمة ألصقت به .

الثاني : **مذكرات اجتماعية** ، وأصحابها يهتمون عادة **بتصوير عيوب الناس أو شرح مزايا فيهم** ، رغبة منهم في إصلاح المفاسد ، أو محاولة لتطوير مجتمعاتهم أو النهوض بها .

الثالثة : **المذكرات الأدبية** ، وقد تتضمن سيرة ذاتية لأصحابها ، مفصلة واضحة أو موجزة ، لا يلتزم بالتتابع في حوادثها ، وكثيراً ما يستخدم بعض الكتاب في مذكراتهم الأدبية **الخيال أو الرموز لغايات قد لا يصرحون بها تاركين إدراكها للقراء** .

هذا وفيما نشر من مذكرات ، ما يصعب تحديد انتمائه إلى إحدى هذه الفئات ، وفيها ما قد يكون مجرد انطباعات وذكريات سجلها الكاتب حتى لا تنسى ، وهي تتضمن بعض ما في الفئات كلها مرتبة أو غير مرتبة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

- ٢ -

## المذكرات بين التأريخ والأدب

قلم الأديب حرٌ طليق ، أما قلم من يتصدى لكتابة التاريخ ، فيجمع العلماء على وجوب اتصافه بـ « **العدالة** » لا تحرفه عن تدوين الحقيقة رغبة ولا رهبة ، ولا يثنيه عن قولة الحق هوى ولا ميل ، يسجل الحقيقة غير متزيد فيها ولا متستر على شيء منها ، وهم يشترطون فيمن يؤرخ للعصر الذي يعيش فيه « **الانصاف والتجرد** » ، حتى إن بعضهم يوصي المؤرخ بالابتعاد عن كل مامن شأنه أن يشكك في عدالته أو يريب في إنصافه ، فلا يسرف في مدح من يحب ولو كان فاضلاً ، ولا يشتط في نقد من يكره ولو كان سيئاً .

أما من يتصدى لتدوين ذكرياته ، فشأنه غيرُ شأن المؤرخ ، فلا يمكن أن يطالبَ امرؤ يترجم لنفسه ، أن يتجرد عن عواطفه فيعدد مثلًا مثالبه الشخصية ، ويكشف للناس عما جبل عليه من مطامع ، أو ينقد تصرفاته وسلوكه ، ولكن إن فعل فهو حرٌ !

كما أنه لا يمكن أن يطالب امرؤ يدون ذكرياته أن يُسجل الحقائق كما رآها مبغضوه أو خصومه ، فالمرء لا يلجأ عادة إلى كتابة مذكراته أو تدوين سيرته الذاتية إلا ليبين عن حقيقة قد ينكرها الناس أو يجهلونها ، أو ليكشف عن الحقائق كما رآها بنفسه ، أو يشير إلى الأسباب التي مكنته من رؤيتها ، أو ليسجل مشاعره إزاء بعض الحوادث أو صانعيها .

إنما يشترط فيمن يدون « المذكرات » **الصدق والانصاف ؛ الصدق**

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيما يرويه أو ينقله ، والانصاف مع من يكرههم فلا ينحلهم رأياً لم يرتأوه ولا يزور على لسانهم كلمة لم يتفوهوا بها ، ولا يتهمهم بفعل هم منه برءاء ، فإن التزم بهذا الشرط تغدو مذكراته من الوثائق التي يمكن للمؤرخين أن يعتمدوا عليها .

## - ٣ -

### ثلاثة نماذج من أصحاب المذكرات

عرفت سورية في تاريخها الحديث عـــدداً من رجـال السياسة ، نشروا سيرهم الذاتية في « مذكرات » فأغنوا المكتبة العربية بوثائق فذة، أضاءت جوانب هامـة من الواقـع الاجتماعي المتخلف ، أو من التاريـخ السياسي المضطرب ، وكشفوا حقائق كانت مجهولة ، أو كانت غائمة تكتنفها الشبهات وتدور حولها أقوال تشوبها الأهواء .

وكان في طليعة من نشرت مذكراتهم بعد « مذكرات » **الأستاذ الرئيس محمد كرد علي** ، ثلاثـة من كـبار رجالات هذا الوطن (١) ، أخلدوا إلى كتابة سيرهم الذاتية وتدوين ما عرفوه من الحوادث السياسية ، بعد نضال طويل وكفـاح مرير في سبيل الوطن ورفاهه وأمنه ، فترجموا لأنفسهم وسجلوا الأعمال التي قاموا بها وهم يتولون أمانة الخدمة العامة ، عارضين على الناس ما عرفوه من خفايا السياسة ، وسخة كانت أو نظيفة .

لقد أثنيت مرة على مذكرات هؤلاء الرجـال **فأرضى ثنائي كثيراً**

---

(١) هم الأساتذة حسن الحكيم ويوسف الحكيم أطال الله حياتها وخالد العظم رحمه الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من العلماء وطلاب الحقيقة ، ولكنه أغضب بعض رجال السياسة ، فأنكروا علي رأيي ، لأن هؤلاء يختلفون عن أولئك في تقويم الأشياء وتقديرها ، ولا سيما إذا كان لهم صلة بهذه الأشياء ، أما أنا فقد عرفت الرجال الثلاثة وعرفت ما جبل عليه كل واحد منهم من خلق .

إن الرجال الثلاثة لم يدونوا في مذكراتهم كل ما يبحث عنه المؤرخ من حقائق تاريخنا السياسي ، إذ كان الواحد منهم لا يهتم إلا بما عرفه أو اتصل به أو شارك في صنعه ، كما كان أسلوب كل منهم تابعاً من مزاجه الخاص ، ومن تحليل شخصي للحوادث التي دوّن تفصيلاتها ، واختلافهم هذا ما كان ليفسد تقويم ما كشفوا عنه من حقائق التاريخ كما عرفوها أو كما خيل إليهم أنهم عرفوا حقيقته .

الأول منهم رجل صدق واستقامة ، رفعته إلى قمة العمل العام أخلاقه ومزاياه ، فسعى ما وسعه الجهد في خدمة الوطن ، بدأ يدون ذكرياته عن الطريق الذي مشى فيه خطوة خطوة ، ودوّن مشاهداته واصفاً ما رآه دون أن يعطي اهتماماً كبيراً لما يجهله من خلفيات ماشاهده ، وصور من رآهم من الناس أو عمل معهم من رجال السياسة ، دون أن يهتم بما تنطوي عليه صدورهم من عواطف ، كما سجل ما سمعه أو قرأه دون أن يركض وراء الدافع إليه أو يتحرى عن الباعث عليه ، وكان في جميع ما كتبه صادقاً في روايته منصفاً في أحكامه .

والثاني منهم كان رجل قانون أمضى جلّ حياته يقطع بالحق منازعات الناس ، مشرفاً على توزيع العدالة بينهم ، ثم أخذ يدوّن ذكرياته في العهود التي عمل خلالها على دعم سيادة القانون ، فجاءت مذكراته وكأنها كتبت على المنصة التي كان يجلس عليها ، إثباتاً للوقائع التي جرت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أمامه أو أثيرت في مجلسه دون التفات إلى غير الموثق منها ، ووصفاً حيّاً المتداعين وشهود الجلسة ، وقد بدا التهذيب في تصرفاتهم ، كما بدت النظافة في ثيابهم ، دون التفات إلى حقيقة أخلاقهم وما تحت ثيابهم من سوءات .

أما الثالث رحمه الله فوارث مجد قديم ، جُبل على حب الفن ، كان يتلهى برسم من يراهم وهو في أحرج المواقف ، دفعه طموحه إلى خضم السياسة فخاضه حتى علقت أوحالها بثيابه فخلعها ثم عرّى من عرفهم من الرجال ، وأخذ يرسمهم بقلمه كما بدوا لناظريه بادئاً بنفسه مسجلاً عيوبه وعيوبهم غير مفنـــد عيوب نفسه ولا حافل بجوانب الحسن والجمال عند من يكرههم ، ولكنه كان صادقاً في تسجيل عواطفه ومشاعره تجاه من وقفوا في سبيل تحقيق طموحه ، كما كان جهده وعنته في إنصافهم من خلال ما كتبه واضحاً بيناً .

- ٤ -

## الانسان الذي تعذرت عبقريته ولم يستطع ارضاء نفسه

بدأت عبقرية محمد كرد علي بالتفتح والقرن التاسع عشر الميلادي قد شارف على الانقضاء ، كان العالم الغربي يومئذ في أوج التقدم الحضاري الناجم عن الثورة الصناعية والتوسع الاستعماري ، بينما كانت بلاد الشرق الأدنى تتثاءب وهي بين النوم واليقظة ، ومبادىء الثورة الفرنسية قد تسربت إلى بعض الطبقات فيها بقصد القضاء على النظم السياسية والسلطات الاستبدادية القائمة فيها يومئذ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كانت الدولة التي كنا جزءاً منها تتمخض عن ثورة عارمة ، ما لبثت أن انفجرت سنة ١٩٠٨ ، وقام فيها نظام جديد يخفي بين برديه استبداداً أشد مما كان بحجة صيانة أحكام الدستور وكفالة سيادة القانون ، وانتهى الأمر بأصحاب النظام الجديد إلى المغامرة في حرب عالميـــة لم تنته إلا وخارطة العالم السياسية قد تبدلت .

في بلاد العرب أعلنت الثورة ضد الاحتلال والتمزق ، وفي سورية قامت مملكة مستقلة ، ولكن المطامع الاستعمارية لدى الدول المنتصرة ، أعاقت الاستقلال وزادت في التمزق وفرضت الانتدابات ، وابتدأ العرب في صراع جديد في سبيل الحرية والوحدة والتقدم .

في هـــذه الفترات المضطربة من تاريخ العرب السياسي ، عاش **الانسان محمد كرد علي صحافياً يعمل على نشر الوعي بين الناس ، وأديباً يسعى لاحياء العربية وتراثها المجيد** ، وكاتباً يحاول إصلاح المجتمع والنهوض به ، ومؤرخاً يجمع لبلاد الشام خططها وما تفرق من أخبارها ، ووزيراً يطلع على كثير من الأمور التي تجري وراء الأستار .

دخل محمد كرد علي من مطلع شبابه في خدمة الحكومة بدمشق ولكن الصحافة استهوته فترك الحكومة ليشتغل فيها فوجدها في بلده وليدة تحبو ، وتطلع إليها تدرج في مصر وارتحل إلى القاهرة ليخوض غمار المهنة التي استهوته حتى واتته الفرصة فعاد إلى بلده ليواصل الانغماس في متاعبها لأنه كان يراها أعظم وسيلة « للمطالبة بالإصلاح وطرد لصوص الموظفين من خدمة الدولة وحفز العرب إلى العمل النافع والتذرع بالمشاريع المنتجة وبعث الفراغ واستخدام الكفاءات ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غير أن الأحوال السياسية لم تكن تسمح بقيام صحافة حقيقية ترضي الإنسان في محمد كرد علي ، فقد كان على الصحافي يومئذ أن يبتعد عن أمور كثيرة ليتقي المتاعب وأحياناً ليحفظ حياته ولهذا قال : « وأكثر ما يجب أن يتوقاه المحرر ذكر شيء يمس السلطان من قريب أو بعيد أو يمس عمله ورجاله وجيشه وإدارته وسياسته ، وألا يشير إلى مسألة تاريخية فيها ذكر الخلافة والحرية والشورى والدستور وقتل الملوك وخلعهم » .

يكتب محمد كرد علي في النقد الاجتماعي ووصف التخلف وكيفية « تسرب الجهل إلى العبث بالعقول » حتى لم يبق « **من العلم الحقيقي غير قشوره** » مئات من المقالات صور فيها الناس في تشدقهم بالأقوال وتخاذلهم بالأفعال ، ونقد سلوكهم ، كما نقد ظلم الولاة واستهتارهم بمصالح الرعية ، وبرغم حذره الشديد من كل هذا واكتفائه بالتلميح دون التصريح في أحيان كثيرة فقد تعرض لمخاطر التعرض لرجال الدولة فأقيمت عليه الدعاوى ولوحق من قبل رجال الأمن وطلب رأسه في بعض الحالات فاضطر إلى المغامرة والفرار مجتازاً البوادي والقفار يلبس لبس الاعراب وينتحل تجارة الجمال .

رغب محمد كرد علي في أن يؤرخ لبلاد الشام من غابر الأزمان حتى عصرها الحديث ، **فأعد للأمر عدته وألزم نفسه بالشروط الواجب توافرها فيمن يتصدى للتأريخ** ، ثم قدم « خطط الشام » واضعاً جهده في « العناية بتجريد هذا الكتاب ما أمكن من المبالغات والخرافات ، ونخل لباب الوقائع المهمة الثابتة وحذف ما فيه من شية شبهة أو شائبة غلو » ثم قال : « وعنيت في قسم التاريخ السياسي أن أبين علل الحوادث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتسلسل الكوائن ودواعي الأحوال القريبة والبعيدة واستخراج النتائج واستنباط القواعد ، والتاريخ ربيب الحرية لا يتصرف فيه على هوى من يكتبه أو يقرؤه ولا على أذواق المعاصرين وميولهم . وما دام موضوعه الاعتبار بالحالي لمعرفة الحالي والآتي ، فهو جدير بأن يتحرى فيه الحق ، ولا يدون سواه ولا يتناغى فيه بغير الواقع » .

في كل ما كتبه محمد كرد علي كان **الصحافي الحق والناقد المنصف والمؤرخ الصادق** ، وعندما التجأ إلى مصر وجد فيها من الحرية ما افتقده في بلاد الشام فاحبّها ، كما وجد فيمن تعرف إليهم من المصريين ما حببهم إليه ، فأخذ يشيد بمصر والمصريين بقلمه ولسانه حتى انه **أهدى أضخم جهوده إلى صديق مصري** ، وأنزل مصر منزلة الشام من حبه لها معتقداً أنهما شقيقان يتم كل منهما الآخر وهو يقول عنهما : « **انتفع الشام وهو القطر الشقيق الأصغر لمصر المحبوبة ، بالنهضة المصرية أكثر من عامة الأقطار العربية ، للجوار وأواصر القربى وكثرة التشابه بينهما** » .

وألزم محمد كرد علي نفسه بالدفاع عن مصر العزيزة على قلوب العرب والمسلمين ، ضد كل من يحاول الانتقاص من مركزها من العالم العربي والإسلامي ، حتى أنه دفع إليّ ذات يوم مجلةً قائلًا : « اقرأ ما كتبه منتقص من فضل مصر على العرب ، وتولّ الرد عليه إن كنت تحب الدفاع عن الحقيقة التي يتجاهلها أمثال هذا الكاتب » وكان ردّي من بواكير ما نشرته لي مجلة المجمع العلمي العربي .

كان لمحمد كرد علي مجلس يوم الثلاثاء يرتاده العلماء والأدباء وأهل الفضل ، وتسلل ذات يوم إلى هذا المجلس رجل باسم الأدب والشعر ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان الناس قد تسامعوا بمشادة وقعت في مصر بين كرد علي وزميل له من كبار المجمعيين ، دافع كرد علي عن العربية وسمعة مصر في العالم الإسلامي ، وهاجم رأي من لا يهتم بالعرب وبالعربية ولا بسمعة مصر عند المسلمين . واستثار الدخيل على مجلس محمد كرد علي غضبه بدفاعه عن كاتب لم يلتزم جانب الحق في النزاع وملق المستخفين بالعربية .

لقد كان هذا الكاتب عضواً في مجمع دمشق رشحه للعضوية محمد كرد علي نفسه وأعلى شأنه في البلاد ، وأرسل كرد علي إليه ذات يوم مقالاً ينقده على كتاب أصدره متخيلاً فيه قصة تعيب تاريخ العرب والمسلمين ، فأهمل نشر النقد غير معتذر عن إهماله للأستاذ الرئيس .

وغضب الأستاذ الرئيس من ذكر اسم الكاتب في مجلسه فجرى على لسانه كلام يجري على لسان من يغضب ، وقام الدخيل على مجلس الأستاذ الرئيس ينشر ما كان في المجلس وما لم يكن ، **فكانت الشرارة التي التهمت بلهيبها جزءاً من منزلة محمد كرد علي في مصر ودمرت قلعة من الحب والتقدير** كان رحمه الله قد تعب في بنائها .

أن محمداً كرد علي إنسان قبل أن يكون مؤرخاً وأديباً وصحافياً ، انسانٌ مرهف الحس ، يحب ويكره ، يحب الخير والصدق والجمال ، ويكره الشر والكذب والفساد ، إنسان عصبي المزاج يطرب ويغضب ، تطربه الكلمة الحلوة ويسره المنظر الجميل ، تستخفه النكتة في موضعها وتنقبض نفسه من أي انحراف يراه أو يسمع به ، كان يتألم من الظلم ينزل بأحد الناس ، ويغضب إذا ما استثير أو استغضب .

**لقد ارتضي محمد كرد علي لنفسه التقيد بشروط التأريخ عندما أرخ ،**

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واتبع الحذر من سطوة الرقيب واستبداد الدولة عندما مارس الصحافة ، والتزم وهو يدعو إلى إصلاح المجتمع بالموضوعية ، دون أن يسمي من عرفهم من الحشويين أو المفسدين أو المخرقين .

ولما بلغ محمد كرد علي الستين من العمر وزهد بالدنيا ومناصبها ، **وجد نفسه يحمل في صدره عبئاً ثقيلاً من كبت ما في صدره** من حب وبغض تقيداً بشروط التأريخ ومجاملة لما تعارف عليه الناس .

فأحب أن يجرد ما علق في ذاكرته من انطباعات وارتسامات ، **وأخذ يقيد ما يرد على قلمه حراً ، غير مقيد بتاريخ أو بترتيب أو تصنيف** ثم وصف ما بدأ في صنعه بقوله :

« أصوّر بهذا التقييد طائفة من عشت بينهم صورة صادقة ، وأدوّن كل حق عرفته ، ليشاركني أبناء هذا الجيل والذي بعده في الإنكار على من أضجروني بقصورهم ، وآلموني بغرورهم .

كتبت كتباً كان الجدّ سُداها ولحمتها ، وما جوّزت لنفسي الحياد عن قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن آيين المتقدمين والمتأخرين ، وأريد هنا أن أنزع قيوداً أثقلتني وأنا أراعيها ، وأن أبعد عن ذاك الطراز المقيد وأخرج إلى هذا الأسلوب المطلق .

أحاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرّها ، وكرعت خلها وخمرها ، أن أهزل أحياناً ، وأسخر أحياناً ، وأضحك أحياناً ، وأبكي أحياناً ، لأن نفسي سئمت الالتزام بالجد ، وتبرمت من الاضطراب فيه زمناً طويلاً ، وطبيعتي تعصى على العيش الرتيب .

**وأمنية النفس يوم تنشر هذه المذكرات ألا يشمئز منها تاليها**

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وسامعها كثيراً ، وأنا إلى هذا لا أطمع أن يجمع الملأ على استحسانها ، فتلك بغية ما تمت حتى الآن لتأليف ، ومن أين لصفحات محدودة أن تستوفي عامة شهوات النفوس .

وإذا كنت لم أستخذ أمام من كان في أيديهم النفع والضر ، فأنا لا أصانع من لا يرضيهم إلا سكوتي عن مساويهم . دأبت على قتال الأردياء ، والشبابُ غضٌ ، والرغبة في إطالة جيل الأجل عظيمة ، فحريٌ بي ألا أكف عنهم ، وأنا أطوي آخر مراحل العمر ، وأنفض اليد من بهرج الحياة .

قصدت بما دونت التحذير من دَجَل الدجالين ، والتنبيه على أحابيل المبطلين ، والعمل على مكافحة الظالمين ليُعرف أن كل جيل لا يخلو من دعاة يحلو لهم الجهر بالحق مهما جَشَّمهم ، ومن أفضل الطرق إليه ضرب السفهاء في وجوههم بعيوبهم .

جربت السكوت عمن لم يأتوا ببرهان واحد على حبهم الخير ، وما جنيت من الإغضاء إلا البلاء .

الجهر بالحق ، ومقاومة الظلم ، من أول مراتب النهوض « والساكت عن الحق شيطان أخرس » .

* * *

سادتي

لقد أخذت اليوم أكثر من حقي في الكلام عن محمد كرد علي وإن كان حقه عليَّ وعلى أمثالي من تلامذته لا يوفى بأضعاف ما صنعناه في هذه الاحتفالات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن قصة مذكرات محمد كرد علي ومادار حولها من جدل بين عارفي فضله وبين مبغضيه لم تكمل ، والكلام على ما حوته من معلومات قيمة تفيد المؤرخ الدارس والباحث في أحوال المجتمع الشامي والمصري في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كلام طويل ، فاسمحوا لي أن أرجىء تتمة القصة إلى مناسبة أخرى .

وليسمح لي صديقي علامة العراق وشاعر العربية الكبير **محمد بهجة الأثري** أن أستعير ختام تعريفه بالمذكرات حفظه الله .

« ... وذكرت متنزهات الدنيا بين يدي أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد فقال : « هذه متنزهات العيون فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟. قالوا : « وما هي ؟ » قال « كتب الجاحظ ، وأشعار المحدثين ، ونوادر أبي العيناء » قال الأثري حفظه الله : **وأنا أضيف إليها رابعاً : كتاب المذكرات ، فهو بِدْعٌ في كتب هذا العصر ، وما يرجى من نفعه أمتع وأفضل وأغزر .**



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تمثال نصفي للأستاذ محمد كرد علي

( صنع الفنان عفيف البهنسي )



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net